جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان - قسم التاريخ
أستاذ المادة: د/ سمير مزرعي السنة الثانية ليسانس

المحاضرة التاسعة: مصادر تاريخ الجزائر المعاصر (الكتب والمؤلفات الجزائرية)

1- مؤلفات "أحمد ولد قادي باشاغا فرندة":

يعتبر أحمد ولد قادي واحدا من القيادات الأهلية التي استعان بها الاستعمار الفرنسي بعد 1830م ليوسع استيطانه؛ بعدما وقفت في وجهه المقاومة الشعبية الجريئة، رغم ما بينه وبينها من فروق في العدة والعتاد، وزيادة على الجرأة العسكرية والشجاعة الحربية اللتين امتلكهما هذا الأخير، امتلك نباهة خلدت اسمه مع أسماء المؤلفين القلائل الذين كسروا الحصار، الذي فرضه الفرنسيون على الأقلام الجزائرية حتى لا تكتب شيئا من تاريخها.

لقد أغرى النجاح العسكري لـ "أحمد ولد قادي" بعض الفرنسيين، فكلفوه بمهمة التأليف التي انتظروا منها تقديم صورة مشرقة عن فرنسا، التي تلطخت أيديها بالدماء أينما حلت وارتحلت، ولعل أحدهم يرد بأن شخصية ولد قادي الاندفاعية التي تشع حماسا لم تكن بحاجة إلى من يحركها، وهذا صحيح نسبيا وإلى حد بعيد، لكن ربما يكون هو الآخر كتب ما كتب بإيعاز من الفرنسيين، بغية التأثير على عقول المجتمع الجزائري، واستغلال أبناء جدلته لتحقيق ذلك.

سجل ولد قادي انطباعاته عن رحلته الثالثة إلى فرنسا في إطار حضوره المعرض باريس، فكانت "الرحلة القادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية" التي نشرها عام 1878، ثم أرخ لعائلته وله هو شخصيا في كتابه الثاني المطبوع بوهران عام 1883 والذي سجل فيه ما رآه آنذاك بطولات تستحق التسجيل، ونقصد كتاب "الدواير والزمالة وحركاتهم".

1.1- الرحلة القادية في مدح فرنسة وتبصير أهل البادية:

تحوّل حب فرنسا إلى قطبِ رَحَى تدور حوله حياة أحمد ولد قادي، حتى أنه لم يعد يرى لها معنى خارج الحضور الفرنسي بالجزائر، لذلك حرص كل الحرص على أن يقدم فرنسا إلى القارئ من خلال ما سجله في رحلته، فجاءت صورتها بيضاء ناصعة تخدع من لا يعرفها على حقيقتها، ولربما غيرت نظرة بعض أعدائها إليها.

يستثير باشاغا فرندة أحمد ولد قادي القارئ من خلال الصورة اللامعة التي يقدمها عن فرنسا الاستعمارية في رحلته القادية" التي جمع فيها ما رآه أثناء زيارته لمعرض باريس لسنة 1878م، حيث تفنن في تصوير مظاهر الثورة الصناعية التي عكست تفوق فرنسا على مستعمراتها، وحرص تبعا لذلك على أن يدرج كل ما يمكن أن يشهد على حبه العميق لهذه الدولة وساداتها، وإذا كان قارئ كتاب "الرحلة القادية" يلمس لا محالة تشبع ولد قادي بحب فرنسا والدفاع عنها، لكنه في المقابل ورغم هذا كله راوغ بذكاء ليقدم مجموعة من المطالب التي رفعها باسم القيادات المحلية المتعاونة مع الاستعمار منذ عشرات السنين، والتي صار التخلي عنها واستبدالها بقيادات فرنسية شابة مسألة وقت فقط، مذكرا أرباب فرنسا بواجبهم الأخلاقي تجاه هذه الفئة التي ينتمي إليها هو نفسه، والتي صارت تتآكل تدريجيا في ظل تعويض النظام العسكري بنظام مدني أكثر شراسة.

2.1- كتاب "الدواير والزمالة وحركاتهم":

لم يكن كتاب "الدوابر والزمالة وحركاتهم" هو الوحيد في إطار هذا الترويج، فقد ألف ولد قادي "الرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية"، ونشره بالعربية ومترجما إلى الفرنسية عام 1878م على إثر الزيارة الثالثة التي قادته إلى باريس بمناسبة معرضها الشهير، حيث عاد منها متشبعا بحب فرنسا والدفاع عنها، لكنه رغم ذلك أدرج ضمن كتابه هذا مطالب جزيئة تخص مصالح القيادات المحلية التي دعمت الوجود الفرنسي بالجزائر، كما خص ببعض هذه المطالب وضعية الجزائريين عموما ضمن النسيج البشري العام الذي صار بالمستعمرة بعد أربعين عاما من الاحتلال.

طبع كتاب "الدوائر والزمالة وحركاتهم" لأحمد ولد قادي باشاغا فرندة بوهران سنة 1883م، ورغم ذلك فهو في حكم المفقود لقلة عدد نسخه المتوفرة، لذلك ارتأى الدكتور كمال صحراوي تقديمه للقارئ، وإعادة نشره بعد مراجعته وتقديمه والتعليق عليه. لقد أرخ الكتاب لحقبة تاريخية عصيبة ميزتها مقاومة الاحتلال الفرنسي بالجزائر في الغرب والجنوب الغربي (مقاومة الأمير عبد القادر، مقاومة بومعزة، مقاومة أولاد سيدي الشيخ، مقاومة بوعمامة)، لاسيما بعد اتفاق الكرمة سنة 1835م ، بحيث رافق التوسع الفرنسي في هذه المناطق، فقد أرخ في الأصل لتاريخ قبائل الدوائر والزمالة وأصولها، ثم لدورها في هذه الأحداث خدمة لفرنسا ودعما للوجود الاستعماري على مدى أكثر من أربعين عاما، كما قدم صاحب الكتاب للقارئ عرضا وافيا عن دوره هو كواحد من القيادات الأهلية ذات الكفاءة، وأنهى ذلك كله بالاعتراض صراحة على التحولات التي عرفتها الجزائر بسبب تعويض الحكم العسكري بالمدني بعد 1870م، وهو ما انجر عنه انقلاب على هذه القيادات وعلى القبائل الداعمة لها.

إضافة إلى ذلك؛ سجل فيه المؤلف فيه بعضا من تاريخه وتاريخ عائلته، لحوالي نصف قرن من "التعاون" بين قبائل الدوائر والزمالة وبين السلطة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر، غير أن لغته الكتاب أقل ما يقال عنها أنها بسيطة مائلة إلى العامية، بحيث أنه استخدم كثيرا من الكلمات التي لم تعد مستعملة اليوم، أو صار استعمالها ينحصر في جهات دون أخرى، كما توجد في الكتاب تراكيب غريبة وعبارات غير سليمة، لذلك عمل محقق الكتاب على التدخل وإصلاح المعنى دون التأثير على المبنى العام.

2- كتاب المرآة لـ عثمان بن حمدان خوجة:

ويسمى كذلك هذا الكتاب بـ (لمحة تاريخية عن إيالة الجزائر)، ويكاد يكون هناك إجماع على أن كتاب "المرآة" يعتبر الوثيقة الوحيدة التي حفظها التاريخ لنا؛ الشاهدة على هول الكارثة التي أوقعها الاحتلال الفرنسي بالجزائر العاصمة وما جاورها، فهو يوثق اللحظات الأولى لانطلاق عملية الاحتلال، بدءا من استلام الداي حسين ورحيله إلى المنفى، إلى غاية شروع الاستعمار الفرنسي في تطبيق استراتيجيات الغزو المدروسة والممنهجة، فهو بذلك يكون من أوائل الكتب التي صدرت بعد الاحتلال الفرنسي، وتناول أحداثه بكثير من التفصيل والتدقيق.

إن طبيعة التكوين العلمي لحمدان خوجة الكرغلي المنتمي إلى الأقلية التركية الحاكمة، وإتقانه بعض اللغات كالعربية والفرنسية والإنجليزية والتركية، وكثرة رحلاته إلى أوروبا واستفادته منها نتيجة واطلاعه على أحوال الشعوب والمجتمعات، وإلمامه بالتطورات السياسية والاقتصادية الفكرية التي كانت تعيشها أوروبا بعد الثورة الفرنسية، وتفتح مداركه هي ما جعلت كتابه المرآة يتفرد بالشكل الاستثنائي المنقطع النظير إذا ما قورن بكتب معاصرة له من ناحية الشكل والمضمون والمحتوى، فقد ألف حمدان خوجة كتابه باللغة العربية في باريس سنة 1833 خلال مدة زمنية قصيرة، بعد أن أعلنت الحكومة الفرنسية أن ترسل لجنة تحقيق إلى الجزائر بطلب من أعيان مدينة الجزائر، وعلى هذا الأساس سعى حمدان خوجة إلى تقديم وثيقة تاريخية في شكل كتاب تضم

معارف ووثائق وإحصاءات عن الجزائر قبل أن تباشر اللجنة زيارتها إلى الجزائر، وقد ضم الكتاب معلومات تتحدث عن الظلم الذي حل بالجزائر، مقارنا بين الوضعية التي يعيشها مجتمع الجزائر والمجتمع الأوروبي، كما تناول بإسهاب حياة أهل البدو والريف واخلاق البربر وعادات سكان السهول وطبيعة الحكم السياسي والاقتصادي والاجتماعي للحكم العثماني في إيالة الجزائر، ومعلومات مهمة ومفصلة عن الحملة الفرنسية والنزول في سيدي فرج والأعمال الفظيعة التي ارتكبها الاحتلال الفرنسي في الجزائر.

3- مذكرات الشريف الزهار: مذكرات أحمد الشريف الزهار (1781- 1872):

ألف الحاج أحمد الشريف الزهار كتابه هذا بعدما فرغ من المشاغل الإدارية التي كانت موكلة له، إذ تولى مهمة نقيب أشراف الجزائر، كما كان في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر كاتبا لدى الحاج أحمد باي بقسنطينة ثم لدى الأمير عبد القادر، وقد ساعدته هاته المناصب التي تقلدها في التقرب من رجال الدولة والاطلاع أكثر على حقيقة الوقائع التاريخية، لذلك نجد أنه في سنواته الأخيرة عمل على تقييد كل ما عايشه وما روي له من أحداث تاريخية وجمعها لنا عل شكل مذكرات شخصية، يعود الفضل إلى أحمد توفيق المدني في إنقاذ هذه المذكرات من الضياع، حيث استلم مسودتها من حفيد الزهار، الشيخ محمود، وقام بمراجعتها وإعدادها للنشر مع إضافة الهوامش والتعليقات الضرورية.

قدمت المذكرات وصفا لعدد من المواقع البارزة في مدينة الجزائر، مثل المساجد، وألقت الضوء على عادات الجزائريين في الاحتفال بالمناسبات، بما في ذلك مشاركتهم في احتفالات الدولة العثمانية، بالإضافة إلى أخبار الحج. كما تناولت المذكرات انتشار الأوبئة خلال حكم الداي حسين، مع الإشارة إلى تفشي وباء جديد في الجزائر عام 1232هـ/1816م، والذي استمر حتى نهاية عام 1239هـ/1824م، ولم تغفل المذكرات الإشارة إلى التدهور الاقتصادي الذي سبق الاحتلال الفرنسي وتبعاته، بسبب الجفاف والجراد، مما أدى إلى انتشار المجاعات والأوبئة.

4- مذكرات الحاج أحد باي:

هو الحاج أحمد بن محمد الشريف بن الباي أحمد القلي ولد سنة 1786، وهو كرغلي النسب من أب تركي وأم جزائرية، وكان أبوه موظفا إداريا في حكومة الداي، وأمه رقية ابنة الحاج شريفة ابن قانة وهي من أسر ابن قانة المعروفة في الصحراء، وكان أحمد باي يسمى باسم أمه، شهدت حياته الكثير من الأحداث والإنجازات التي جعلته محط أنظار واهتمام الحكومة العثمانية في الجزائر، لذلك عملت على تعيينه في مناصب عدة، فلم يتجاوز سن الثامنة عشر من عمره حتى عين كقائد على قبائل العواسي، وبعد سنة 1818م عين في منصب "باي قسنطينة".

تأتي مذكرات أحمد باي بن محمد الشريف في مرحلة مفصلية من تاريخ الجزائر، وهي المرحلة التي شهدت سقوط الجزائر كإيالة عثمانية وبداية الاحتلال الفرنسي لها سنة 1830م، فقد كتب أحمد باي مذكراته بعد نفيه إلى الجزائر العاصمة، لتوثيق تجربته السياسية والعسكرية، ومحاولة تبرئة نفسه من الاتهامات التي روّجها الاحتلال الفرنسي حوله، وكذلك للحفاظ على ذاكرة المقاومة المحلية في الشرق الجزائري.

لقد أملى الحاج أحمد باي مذكراته على أحد الضباط الفرنسيين (المترجمين بعد استسلامه سنة 1848، وهي في نظر أبي القاسم سعد الله تدخل في باب المذكرات، لأن الباي قد قص فيها حياته ومواقفه من سنة 1830 إلى 1848، وهي بالطبع لا تتناول جميع حياته، ولكن الأسلوب الذي كتبت به والمعلومات التي احتوتها والآراء، كلها تجعلها من نوع المذكرات، ورغم ما فيها من ثغرات

في سرد الأحداث ومن اعتذارات للفرنسيين عن بعض المواقف، فإن مذكراته تبقى مادة خصبة، وتضم معلومات تاريخية وجغرافية وشخصية هامة تلقي الضوء على حياته وعصره.

يستهل أحمد باي مذكراته بالحديث عن نسبه الشريف، ونشأته في قسنطينة، وتعليمه الديني والعسكري، كما يتحدث عن رحلاته إلى تونس ومصر والحجاز، وتأثره بالإصلاحات التي رآها في الشرق، خصوصاً إصلاحات محمد علي باشا في مصر.

يوثق أحمد باي معاركه ما بين 1936-1937م ضد القوات الفرنسية بقيادة الماريشال "بيرتران كلوزيل" (Bertrand Clauzel) والجنرال "ماري دوني دامريمو" (Charles-Marie Denys, comte de Damrémont)، ونجاحه في صد أول هجوم فرنسي عام 1836، وظروف سقوط قسنطينة في الحملة الثانية في أكتوبر 1837 بعد حصار الحصار الشديد الذي ضرب حولها، وانسحابه إلى الأوراس لمواصلة المقاومة.

يتناول الكتاب كذلك مراحل المقاومة التي لقيها من الداخل الجزائري ما بين 1837-1848، فبعد فقدان قسنطينة، واصل أحمد باي المقاومة من المناطق الجبلية الجنوبية، وحاول التنسيق مع الأمير عبد القادر الجزائري، لكن الخلافات السياسية منعت من قيام جبهة موحدة، إضافة إلى الخلافات التي ظهرت مع الأسر القوية بـ "بايلك الشرق" نتيجة المعارضة الداخلية التي لقيها، وقيامه بتصفية بعضهم أو سجنهم أو التشريد بهم، الأمر الذي عجل باستسلامه سنة 1848، ونفيه إلى الجزائر العاصمة حتى وفاته.

إضافة إلى ما سبق؛ يعبر الحاج أحمد باي في مذكراته عن بعض آرائه ا لسياسية والفكرية الخاصة به، فيقدم نقدا صريحا للفساد الإداري الذي عجل بسقوط الإيالة العثمانية، ويبرز موقفا حاد من الاحتلال الفرنسي الذي يصفه بالاغتصاب، كما يؤكد على دور العلماء والزوايا في الحفاظ على الهوية الوطنية.